# روح الديمقراطية فى الاسلام

## تتمثل فى عباداته ومعابده

بقلم الدكتور محمد غلاب

---

اذا كان علماء التاريخ قد أجمعوا على أن الآثار المشيدة أصدق من الاخبار المقيدة ، وأن نقوش الاحجار مقدمة على سطوة الاسفار ، واذا كان من المتفق عليه أيضا أن العمارة تساير الفكر البشرى جنبا الى جنب فى كل تطوراته وتغيراته من جمود وحركة وركود ونشاط ، وهبوط ورفعة. وأنها هى التى تحدد أغلب الافكار العامة ، وأكثر الرموز الدينية ، وترسم المراتب الاجتماعية للامم فى صورها البارزة الخالدة على صفحات تلك الكتب الكبرى أى المشيدات العظمى ، واذا كان الجنس البشرى الى عهد استكشاف المطابع لم يجد مستودعا يحفظ فيه أسرار تاريخه ، ونتائج مجهوداته ، أوثق ولا أثبت من المبانى الصخرية .

ولا ريب أنه محق فى هذا لأنه يود أن يحتفظ بمظاهره الاجتماعية ، ومنتجاته الفكرية ، وجهوده السياسية وتقاليده الدينية ، ويريد أن هذه الجهود كلها تبقى وتتضافر على التأثير فى العصور القادمة كما أثرت فى عصورها التى نشأت فيها ، وتلك أمنية لايظفر بها الا اذا أثبت كل ذلك فى قرار مكين من الصوان ليقاوم أحداث الزمان . ولما كان عود من الثقاب كافيا للقضاء على أعظم كتاب ، وكانت محاولة هدم أبنية الآثار فى حاجة الى ثورة سياسية ، أو الى وثبة اجتماعية أو ظاهرة طبيعية ، فلم يكن هناك بد من الجزم بأن الاثار هى خير حافظ للافكار والاخبار .

ولما كانت الاديان هى الدعامات الاساسية للمدنيات ، فقد كان من الطبيعى أن تكون المعابد هى أبدع الكتب الصخرية التى نشأت لدى الانسانية ، اذ أن عليها تبدو مظاهر النفوس الوثابة التى اعتنقتها ، والقلوب النقية التى آمنت بها ، والقوى الهائلة التى تكاتفت على حمايتها ورفع شأنها ، والعقليات التى افتنت فى تطورها وخلودها ، ومن ثم لم تظهر عبقريات الفن الاسلامى ، ولم تبد مراميه الاجتماعية ، ولم تتكشف أهدافه الانسانية كما تكشفت فى المساجد ، ففى صورها الناطقة بالبساطة والديموقراطية الحقة ، لا الزائفة المؤسسة على الدعاية الكاذبة التى طالما

روجها الغربيون حين تظاهروا بالحرية وأخفوا وراء ستارها أفظع أنواع الاستعباد ، ونادوا بالوفاء وخبئوا تحت ردائه أبشع ألوان الغدر والايقاع، وملأوا الجو ضجيجا وعجيجا وصياحا بالهتاف باسم العدالة ، ودسوا خلف مظهرها أشنع أصناف الظلم والجور ٠

أما الاسلام فحين يدعو الى هذه الفضائل وغيرها ، لا يقول الا حقا وصدقا مشترطا أن يقترن القول بالعمل ، والا كان ذلك القول وبالا على صاحبه ينتهى به الى الانحدار الى دركات المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون « كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » ٠

لهذا كان مجرد النظر الى تلك المظاهر الخارجية للمساجد والتأمل فيما يجرى فى داخلها من المساواة أمام مالك الملك ، يوحيان بالمبادىء الاسلامية على حقيقتها

ولكى نفهم لغة هذه الاحجار التى شيدت بها المساجد ينبغى أن نوازن بين المعابد المصرية القديمة وبين تلك المساجد التى جعلت من القاهرة مقر الافكار الاسلامية ، ولا نكاد نفعل حتى يباغتنا ذلك التعارض المجسم الذى نشاهده بين النوعين والذى لايسعنا تجاهه الا أن نتبين الادوار المختلفة التى مثلها التطور الاجتماعى على مسرح تاريخ وادى النيل فى عصوره الاثرية والاسلامية ، فأنت لا تكاد تضع قدميك فى المعابد الاثرية حتى يبهر عينيك ويهول عقلك ماتشاهده فيها من عظمة ومتانة وطغيان ، كأنه يتحدى الزمان ويعاند الايام ، ولا توشك أن تتأمل فيما على جدرانها من صور ولوحات ورسوم ، حتى يملك عليك أحاسيسك ماتراه ماثلا أمامك من احتفاظ تلك الرسوم بالعناصر البدائية والنماذج التقليدية وتفاصيل الطقوس الدينية ، والعادات القومية وما الى ذلك من الشئون الاجتماعية ، وهى فى كل هذا تحاول أن تخضع جميع صور الانسان والطبيعة لقواعد رمزية مفهومة حينا وغامضة أحيانا ، وكل مايتعدى حدود هذه القواعد يخرج عن اطار التقوى ، ويهوى فى حضيض التزندق أو الالحاد،وبالاجمال كل ما فى هذه المعابد ناطق بلسان الدين المستبد وحكمه المطلق ، وطغيانه الذى لا يعرف هوادة ولا لينا ٠

كما أن تلك الرموز الغامضة تشير الى اشتمال ذلك الدين على أسرار هائلة ، وخفايا مرعبة ودخائل رهيبة ، لاتباح معرفتها للشعب ، ولا يجرؤ على الاحاطة بكنهها غير الكهنة المختارين ٠ ومعنى هذا أن تلك المعابد تشعر رائيها للوهلة الاولى بالغموض والتعقد والرهبة والطغيان ، وبأنها ملك للكهنة وحدهم وليس للامة فيها أدنى وجود ، أو هى تقذف فى نفسه بأنه أمام كتاب مظلم لايباح تصفحه الا لطبقة واحدة محظوظة ، وهى طبقة رجال الدين ٠

أما الحالة فى المساجد فهى مغايرة للاولى تمام المغايرة ، اذ لايكاد الناظر يطالع اليها حتى يسحر عينيه ماتشتمل عليه من عظمة المظهر وبساطة الخطوط الرئيسية فى الهيكل العام ، ويفتن قلبه ما تحتويه من ثراء فى الحلى ، وتنوع فى الزخرفة · وليست العظمة هنا ناشئة عن الغموض ، أو منبعثة عن الرهبة المظلمة الحزينة ، كما هى الحال فى المعابد الوثنية ، وانما هى ناشئة من منظر المآذن المنتصبة فى عزة واستقامة تمثلان الفضائل الرئيسية للاسلام ، والمتجهة نحو السماء غاضة الطرف عن الارض ومن عليها ، تشبه القلب الموحد العامر بالايمان الذى لايتجه الا الى من بيده الملك غير مكترث بأولئك الذين لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشىء لم يرده الله له لما استطاعوا ، ولا لهؤلاء الذين لو اجتمعوا على أن يضروه بشىء لم يرده الله له لما استطاعوا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ·

واذا انصرفنا عن المظاهر الخارجة ودخلنا تلك المساجد ألفيناها غاية البساطة والقناعة والتواضع ، وأحسسنا بأنها للجميع ، لافرق فيها بين كبير وصغير ، وثرى وفقير ، وشعرنا بأن جميع الفوارق والاعتبارات قد انهارت فجأة عند تخطى هذه العتبات الفاصلة بين أباطيل المجتمع وحقائق الايمان وما ذلك الا لان الاسلام هو دين السماحة والتسامح ، والديموقراطية الحقة ، والحرية الصحيحة والتواضع النقى ، والتسوية أمام القانون . والاخوة فى الله ، ولم لا ، أليس هو الذى يقول فى كتابه : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ويهتف نبيه بأن « الناس سواسية كأسنان المشط ، لافضل لاحد منهم على أحد الا بالتقوى · »

واذا كان الامير يشعر بأنه يتساوى مع الصعلوك خمس مرات فى كل يوم وليلة ، حين يركعان ويسجدان فى صف واحد جنبا الى جنب وجبهة الى جبهة ، أفلا تكون المساجد الاسلامية فى هذه الحالة خير مصنع يصوغ الديموقراطية فى أحسن صورها ، وأبهى رسومها ، وأعظم مدرسة تهذب النفوس وتزيل منها آثار العنجهية الكاذبة ، وتعودها على التواضع ولين الجانب ووداعة الاخلاق ·

وليس ذلك مجرد نظرية فرضية ، أو حكم استنباطى وانما هو حقيقة تجريبية وقعت مشاهدة مثلها العليا لى أنا شخصيا وطبقت أمامى جزئية من جزئياتها العملية ، وكنت لا أزال فى السابعة من عمرى فتركت فى نفسى أثرا ليس فى مكنة الزمن أن يمحوه ، أو أن يأتى على معالمه · وبيان ذلك أن أخى الاكبر أمرنى بالصلاة فى تلك السن المبكرة فامتثلت لامره ودخلت المسجد وأحرمت للصلاة الى جانبه وقد وقف بيننا لاداء الفريضة خادم من خدامنا كنت أعلم أنه يقف دائما من أخى موقف المتحفظ المحتاط الذى يحرص على أن تكون بينه وبين سيده مسافة كافية لتسجيل الفوارق الاجتماعية · واذا ناوله شيئا بادر على أثر ذلك بالتقهقر والابتعاد كما

تقضى بذلك التقاليد المرعية . ولكنى - عندما أحرمنا للصلاة - لاحظت أن هذه التقاليد العائلية قد انهارت فجأة ، وأن تلك الفوارق الاجتماعية قد انمحت بغتة أمام هذه العظمة الالهية الهائلة التى يمثلها الاسلام أصدق تمثيل حين يأمر بأن تتساوى الرؤوس وتتلامس الوجوه فى السجود لرب الملك والملكوت ، وذى العزة والعظمة والكبرياء والجبروت فلا يكون اذ ذاك سيد ولا مسود وانما الكل سواء أمام جلال المعبود .

وأن أنسى ، لا أنسى تلك الهزة العنيفة التى أحدثتها هـــذه الواقعة فى رأسى الصغير الساذج وذلك الصوت القدسى الذى هبط من لدن الملأ الاعلى الى قلبى الناشىء البرىء ، فأوحى اليه فى بساطة تتفق مع مرتبته البادئة اذ ذاك ، أنه ليس فى مكنة أية قوة أن تمحو تلك الفوارق الضخمة التى بين أخى وخادمه الا قوة الاســلام التى أمــرت بأن تتلامس رأســا الخادم والمخدوم فى الســـجود دون نظـــر الى اختلاف الاسر وتبـــاين العناصر والاوومات .

ومما تمتاز به المساجد كذلك أنها تمثل الروح التطورية التى أمر بها الاسلام حين أعلن صلاحيته لكل زمان ومكان ، فهى ناطقة بالحركة والتنوع، والجدة والتقدم والابتكار . وقصارى القول : أن الفنيين الذين شادوا تلك المساجد قد استطاعوا - بمواهبهم أو بفضل المشرفين عليهم - أن ينجحوا نجاحا تاما فى جعل ظواهرها وداخلها لوحة صادقة تمثل المسلم الحق فى عزته واســتقامته واتجاهــه الى ربه وتســامحه وتواضــعه وبساطتـــه وديموقراطيته وحبه للحرية والحركة والتقدم والتجديد . نعم ان المسجد هو موضع السجود فى أى مكان بلا قيد ولا شرط ، وكان من الممكن أن يكون أى متسع من الارض الطاهرة مسجدا يحقق البساطة أكثر مما تحققه هذه المشيدات المزخرفة ، ولكن لما كان هناك من المعانى الاجتماعية مابرهن الزمان على أن الاسلام ثرى بها فى جميع نواحيه فقد اقتضت حكمةالمهيمنين على الشئون الاسلامية تدوين هذه المعانى فى تلك الكتب الفنية الرائعةوهى كتب المآذن والقباب والسقف والحوائط والمنابر والمحاريب التى تشـــهد بأكرم الخلال وأنبل الخصال وتسجل أروع أنواع العظمة وأسـمى مظـاهر الجلال .

**محمد غلاب**

* * *